

سوسيولوجيا الثورة في الفكر الخلدوني
" دراسة معاصرة للربيع العربي في ضوء مقدمة ابن خلدون"



د.علاء زهير الرواشدة
أستاذ علم الاجتماع المشارك
رئيس قسم العلوم الاجتماعية
جامعة البلقاء التطبيقية – الأردن

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

علاء زهر الرواشدة، أسماء العرب، سوسيولوجيا الثورة في الفكر الخلدوني: دراسة معاصرة للربيع العربي في ضوء مقدمة ابن خلدون – دورية كان التاريخية.– العدد التاسع عشر ؛ مارس ٢٠١٣. ص ١٣٩ – ١٤٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

ملخص

هذه دراسة استقرائية تحليلية سوسيولوجية للفكر الثوري عند ابن خلدون ؛ بهدف التعرف على مفهوم الثورة كما وردت في مقدمة ابن خلدون والمفاهيم التي تحمل نفس المعني كالانقلاب والحرب، إضافة للتعرف على أشكالها وأهدافها، وأسبابها، وأساليبها ونتائجها، وصفات قادة الثورات وتأثيراتها في الحياة الاجتماعية والسياسية، مع محاولة استشراف مستقبل الربيع العربي ي ضوء طروحات ابن خلدون. ومن خلال منهج استقرائي تحليي متعمق للفصول الخاصة بالثورات والحروب في مقدمة ابن خلدون، ولأهم المراجع التي تحدثت عن الموضوع بشكل مباشر. وبعد العرض والمناقشة والتحليل، خلصت الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات حول مفهوم الثورات وأسبابها وأشكالها ونتائجها.

مقدمة

يجد الباحث نفسه وهو يتناول بعض الجوانب من شخصية ابن خلدون، واستطلاع آرائه الثاقبة في مسائل الاجتماع الإنساني، أمام شخصية علمية نابغة، اكتسبت دراية واسعة بشؤون الحكم والسياسة، من خلال تقلبه في المناصب ، ومعايشته للسلاطين وحواشيهم، ولذلك جاءت أرائه مشبعة بهذه الخبرة ، طافحة بملاحظاته النابعة من تجاربه المكتسبة من اطلاعه العلم ومراسه السياس. ولذلك يحتل ابن خلدون في التراث العربي الإسلامي وفي الفكر الغربي المعاصر، مكانة متميزة ، فهو أحد الرواد الذين شيدوا البناء الفكري لصرح العلوم الإنسانية، وعلى رأسها علم الاجتماع، ويُنظر إليه على أنه صاحب رؤية حضارية خاصة، ولاسيما فيما يتعلق بدراسة التاريخ البشري، والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري، ويتجاوز بعض الدارسين له ذلك فيتحدثون عن عبقريته في الفكر الاقتصادي والتربوي والسياسي وغير ذلك من الحقول المعرفية.

لقد كان ظهور العلامة العربي ابن خلدون في القرن الرابع عشر بمثابة الانعطافة الكبرى التي غبرت أسلوب التفكر ومنهج النظر في شؤون العمران البشري والاجتماع الإنساني، وقد وضع ابن خلدون لهذا الاجتماع جملة من الحاجات هي بمثابة الأركان التي يتكئ عليها الاجتماع البشري (لاكوش، ١٩٧٤) وابن خلدون هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي كنيته "أبو زيد"، عالم عربي شهر وواضع علم الاجتماع الحديث حيث خرج بنظرياته الاجتماعية حول قوانين العمران وملاحظاته الدقيقة حول قيام وسقوط الدول وأعمارها وأطوارها، كان يهو الاطلاع على الكتب والمجلدات التي تركها العلماء السابقين وذلك لكي تتكون عنده خلفية علمية يستطيع أن يستند عليها بأفكاره وهذا بالإضافة لتمتعه بالطموح العالي والثقافة الواسعة. ولد بتونس سنة ١٣٣٢م لأسرة من أصول يمنية هاجرت الأسرة مع بداية سقوط الأندلس ، اقبل ابن خلدون على العلم وقام بدراسة القران الكريم وتفسيره والفقه واللغة بالإضافة لعدد من العلوم الأخرى.

يعتر ابن خلدون من الشخصيات الإسلامية الفذة التي أغنت المكتبة العربية بالكثير حيث كان من السباقين في طرح كم كبر من الأفكار والنظريات، واستطاع أن يتوصل اليها قبل الكثيرين ممن يدعون الأسبقية، وي مجالنا في علم الاجتماع فأنة يعتر المؤسس لهذا العلم قبل أوجست كونت وفيكو. توفي ابن خلدون في مصر سنة ١٤٠٦م، وكانت شخصية ابن خلدون ولا تزال جذابة من كل جوانا، ولكن جانبن ما قد جذبا أنظار القدامى والمحدثين من الباحثين، وهما الجانب الفكري والثقافي والجانب السياسي ، وتتميز نظرياته بأنها صالحة لكل زمان ومكان لأنها مستقاة من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، فهذا المؤرخ العلامة أول مَن حفظ القرآن الكريم واستقى منه نظرياته في العمران، والدولة والتربية وعلم الاجتماع.(عبد الواحد، ١٩٨٤)

وتحقيقًا لأهداف الدراسة تم الاعتماد على المنهج الاستقرائي لمقدمة ابن خلدون، وبالذات الفصول الخاصة بنظرية العصبية والثورات والحروب، بالإضافة إلى اختيار أهم المراجع التي حدثت عن ذات الموضوع.

مشكلة الدراسة

في ظل ما يشهده العالم العربي المعاصر من حركات اجتماعية ، وتغيرات، وثورات يكون للحديث عن فكر ابن خلدون الثوري أهمية كبرى، قد يساعدنا على فهم ما يجري في واقعنا من خلال استقراء الماضي والمقارنة معه، على الرغم من أن ابن خلدون لم يحدد فصل خاص بالثورات وأسبابها كما فعل بالكثير من المواضيع الأخرى، والتي حدد لها فصل أو أكثر في مقدمته ، لذلك سيتم تجميع أفكار ابن خلدون حول موضوع الثورات مع ملاحظة أن كلمة ثورة لم ترد إلا نادرًا في مقدمته، لكن وجد ما يعتبر اليوم بالوضع الثوري ، حيث تم تجميع أراء ابن خلدون من فصول عدة في المقدمة، وبناءً على ذلك فإن هذه الدراسة ستعرض تعاريف لبعض المفاهيم التي تعبر عن وجود وضع ثوري كالثورات والانقلاب والحروب. كما سيتم تناول جزء من فكر وأراء ابن خلدون في موضوع الثورات حيث سيتم التعرف إلى أهداف الثورة وأسبابها الظاهرة والكامنة من وجهة نظر ابن خلدون. وسيتم الحديث عن ما بعد الثورة ونتائجها من حيث الاستيلاء على الحكم، وهو نقطة البداية عند ابن خلدون لنشأة دولة جديدة قوية، ودور العصبية باعتبارها المحرك الأساسي في هذا الموضوع.

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى التعرف على:

- مفهوم الثورة عند ابن خلدون والمفاهيم التي تحمل نفس المعني كالانقلاب، والحرب.
- أهداف الثورات عند ابن خلدون.
- صفات قادة الثورات.
- أسباب الثورات عند ابن خلدون.
- أشكال وأساليب الثورات عند ابن خلدون.
- نتائج الثورة وماذا يحدث بعد نجاحها.
- استشراف مستقبل الربيع العربي في ضوء طروحات ابن خلدون.

أسئلة الدراسة

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما مفهوم الثورة عند ابن خلدون مقارنة بالمفاهيم التي تحمل نفس المعني كالانقلاب والحرب؟
- ما أهداف الثورات عند ابن خلدون ؟
- ما صفات قادة الثورات ؟
- ما أسباب الثورات عند ابن خلدون؟
- ما أشكال وأساليب الثورات عند ابن خلدون؟
- ما نتائج الثورة وماذا يحدث بعد نجاحها ؟
- ما مستقبل الربيع العربي ي ضوء طروحات ابن خلدون؟

أهمية الدراسة

تتلخص أهمية الدراسة بما يلي:

- في ظل ما يشهده العالم العربي المعاصر من حركات اجتماعية وتغيرات، وثورات يكون للحديث عن فكر ابن خلدون الثوري أهمية كبرى ، قد يساعدنا على فهم ما يجري في واقعنا من خلال استقراء الماضي والمقارنة معه.
- أن العصبية كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله أبحاث ابن خلدون ونظرياته لذلك تكمن أهمية هذا البحث في محاولة التعرف على مفهوم العصبية باعتبارها من المقولات النظرية الهامة التي استخدمها ابن خلدون في تفسر وفهم المجتمع.
- التعرف ومحاولة تفسير وتوضيح مفهوم وأسباب وأشكال وأساليب الثورات والحركات الاجتماعية التي تحدث عنها ابن خلدون من خلال النظريات والدراسات التي قدمها.
- كما تستشرف هذه الدراسة الربيع العربي في ضوء طروحات ابن خلدون.
- إن استقراء آراء وأفكار ومقولات ابن خلدون في الحركات والثورات والحروب والدولة قد تساعد على فهم ما يجري في مجتمعاتنا العربية المعاصرة من تغيرات شاملة.

المفاهيم

بما أن البحث سيتناول موضوع الثورة عند ابن خلدون فلا بد من تعريف هذا المفهوم وبعض المفاهيم الأخرى والتي تتداخل معها في المعني مثل الحرب والثورة الاجتماعية والانقلاب حتي نتمكن من تحديد مفهوم ابن خلدون للثورة من ثم تحرى أسبابها.

- **الحرب**: حيث عرفها بعض المفكرين "أنها صراع عنيف بن القوات المسلحة من قبل أمتن أو دولتين ، أو حاكمين ، أو حربن في نفس الأمة أو الدولة، أو استخدام القوة العسكرية ضد قوة أجنبية أو حزب معاد في نفس الدولة". (الشكعة، ١٩٨٨) [٥] يلاحظ من خلال هذا التعريف أن وجود القوة العسكرية وتدخل القوات المسلحة كأحد أطراف النزاع شرط ي الحرب.

- **الانقلاب:** يقصد به "عملية الإطاحة الفجائية والسريعة والعنيفة بالنخبة الحاكمة، واستبدالها بنخبة أخرى اعتمادًا على بعض عناصر القوة كالجيش والبوليس دون مشاركة شعبية ودون تغيرات أساسية في طبيعة النظام السياسي وأنماط توزيع عناصر القوة في (الشكعة، ١٩٩٢: ١٩). فيلاحظ أن الانقلاب يكون هدفه السلطة الحاكمة فقط، ويأخذ طابع السرعة والعنف ولا يكون هناك تدخل من الشعب، وهذا يعني تغيير الأشخاص الذين يحكمون فقط.

أما **الثورة** فلها عدة تعريفات نذكر منها:

- عرفت الثورة بشكل عام "بأنها التغيير الجذري للواقع الفاسد".
- وعرفت كذلك بأنها "مرحلة بناء حتمية ي تطور المجتمع تكمل أسبابها في التناقضات التي يقوم عليها البناء الاجتماعي ، وبالذات التصادم الحاصل بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، والتنافر بن الطبقات وقانون الثورة الاجتماعية، وهو القانون الأساسي للانتقال من مرحله اجتماعية اقتصادية إلى أخرى". (الشدادي، ٢٠٠٢)

ويلاحظ هنا التشابه ما بين الثورة والانقلاب باستثناء المشاركة أو التعبئة الجماهرية والتي تكون أساسية لإحداث التغيرات في الثورة ، وتعبئة الجماهير وإعدادهم لمرحلة جديدة يتم فيها إجراء تغيرات شاملة لبنية المجتمع. كما يلاحظ الهدف المشرك ما بين الثورة والانقلاب من حيث هو السلطة والنخبة الحاكمة، لأن التغير لها هو السبيل لإجراء التغيرات الأخرى في المجتمع وبشكل شمولي.

وأشار متروك الفاتح إلى تعريف زمرمان الثورة لأنها تعني "الإطاحة الناجحة بالنخبة أو النخب الحاكمة من قبل نخبه أو نخب أخرى وهذه الأخيرة عادةً ما تقوم بعد الاستيلاء على السلطة والتي تتضمن قدرًا من العنف وتعبئة الجماهير بإحداث تغيير جذري في البيئة الاجتماعية وكذلك في بنية السلطة . كما تناول الفالح تعريف تيلي (Tilly) للثورة حيث عرفها بأنها "الإطاحة بالسلطة من قبل جماعة ما معبأة نحو أفضل بالقوة والتي تعني استخدام وسائل عنيفة في الإطاحة، وفرض الإذعان على مجموعات أخرى (الفالح، ١٩٩٦، ص١٧٢ – ١٧٣).

إن التعريفات السابقة اتفقت على أن هناك تغر سوف يطرأ أكان على مستوى النخبة الحاكمة أو على مستوى المجتمع ككل، وهذا ما فرق بن مفهوم الانقلاب وبن مفهوم الثورة ال تكون أعم من حيث التغيرات التي تترتب على حدوثها، رغم أن التداخل فيما بينها حاصل كما يلاحظ من خلال تعريف تيلي (Tilly) للثورة والتي حددها بالإطاحة بالسلطة ولم يشترط المشاركة أو التعبئة الشعبية كما ذكر زمرمان في تعريف الثورة، وهناك تعريفات للثورة بعضها حدد الأسباب التي تدعو إلى حدوث الثورات وكانت بتركيز البعض على العوامل الاقتصادية ونمط الإنتاج وصراع الطبقات بينما ركز البعض الأخر على إدخال العوامل النفسية من الإحباط والسخط والحرمان النفس كأسباب تدفع الجماهر إلى الثورة.

كما أشار البعض إلى ؛ أن الأنساق والقيم والاختلال في توازن المجتمع ومؤسساته بما فيها المؤسسة السياسية هو من أسباب ووقوع الثورات. كما نظر الآخرون إلى الديناميكية للجماعات المتنافسة باتجاه السلطة وسيطر عليها من منظور الصراع السياسي وضعف السلطة المركزية ومراكز القوة وتحالفاتها والمسألة التعبوية.

لذلك نرى وبكل الحالات أن هناك جماعه أو قوه متأهبة لإحداث تغير ي المجتمع، وغالبًا ما يكون بالثورة والاستيلاء على السلطة وهي عند الماركسية الطبقة العاملة المستغلة، وفي النظريات النفسية مجموعة محبطة ترتبط بالحرمان أو ذات التوقعات أو الطبقات الوسطى، والنظريات السياسية للثورة هي جماعة تحالف سياسية. وبالعودة إلى تيلي (Tilly) فنجده حدد شروط للوضع الثوري بما يلي: (الفالح، ١٩٩٦، ص١٧٣).

١. توافر القوى المنافسة وظهورها كبديله للسلطة.
٢. درجة ومستوى الالتزام والدعم للمطالب.
٣. تشكل التحالفات بين القوه المتنافسة.
٤. عجز أو عدم رغبة الحكومة في مواجهة تلك القوى.

وبذلك نكون قد عرضنا بشكل سريع بعض التعاريف التي تناولت الحرب، والانقلاب، والثورة الاجتماعية، حتي نستطيع أن نبن أفكار ابن خلدون في الثورة أو الوضع الثوري من خلال مقدمته.

أولا : الحروب وإنتاج الثورات في الفكر الخلدوني

يعتبر ابن خلدون الحروب والثورات أمر طبيعي وهي موجودة وسببها يكون إرادة الانتقام ، انتقام البشر من بعضهم البعض وتعصب كل لجماعته حيث يذكر في مقدمته: "أعلم أن الحروب أنواع المقاتلة لم تزل واقعه في الخليقة منذ بدأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فإذا تذمروا لذلك ولا توافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع ، كانت الحرب وهي أمر طبيعي في البشر". (ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢٧٠ – ٢٧١). كما ذكر ابن خلدون كذلك أن "من أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان على بعض ، فمن امتدت عينه إى متاع أخيه فقد امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع" (ابن خلدون، ص١٣٢). والوازع هنا: يعتبر بمثابة صمام الأمان الذي يحول دون وقوع العدوان.

ومن الملاحظ ؛ أن ابن خلدون نسب سبب الثورات والخراب والدمار في الأوطان إلى العرب، والسبب كما يذكر بمقدمته "أنهم أمة وحشيه باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فهم قصار لهم خلقًا وجبله وكان عنده ملذوذًا لما فيه من الخروج على رقبة الحكم وعدم الانقياد للسياسية". " إن للعرب ميلاً للتمرد واصطناع الثورات، طبيعتهم النهاب من الآخرين وأخذ أموالهم، السياسية تقف عاجزة عن إيقافهم بسبب خراب العمران" (ابن خلدون ، ص١٥١) ، وعلى ما يبدو أن ابن خلدون قصد الأعراب في البادية ، وليس العرب وهؤلاء تفرض عليهم طبيعة الحياة التي

يعيشونها اللجوء إلى الغزو لتأمين قوتهم ومكان بقائهم في ظل الظروف الصحراوية القاسية التي يعيشونها، وعلى ذلك يفند ابن خلدون أسباب العدوان والانتقام بما يلي: (ابن خلدون، ص٢٧).

١. الغيرة والمنافسة، وهي غالبًا ما تكون بن القبائل والعشائر.
٢. العدوان بين الأمم الوحشية كالعرب والتركمان والأكراد، كون أرزاقهم تقوم على الغزو والإغارة.
٣. الجهاد في سبيل الله (غضب لدين الله).
٤. حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها (أي المتمردين أو الثوار إن جاز لنا التعبير).

حيث أعتبر ابن خلدون الصنفان الأولان حروب بغي وفتنه وصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل. ويقول ابن خلدون أن الوصول إلى الملك في البداية يكون مشجع للمزيد من التوسع والتغلب على عصبيات أخرى. "إذا حصل تغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيده عنها".

(ابن خلدون، ١٩٩٩: ١٤٠). وأعتبر أن الرغبة بالتوسع هو طبع يرافق الغالب عند إحرازه النصر فهو يتطلع دائمًا إلى المزيد.

١/١ – الثورة عند ابن خلدون:

على الرغم من أن ابن خلدون لم يفرد فصل خاص بالثورة ، إلا أن الوضع الثوري عنده يبدأ عند ظهور عدد من العصبيات تتنافس باتجاه السلطة بظل وجود دولة تعيش الطور الأخير ، وهو طور الهَرَم والانهيار، حيث تكون من الضعف السياسي والاقتصادي وتردي الأوضاع الاجتماعية، وهنا تبرز العصبيات التي تتنافس باتجاه السلطة والملك مما أسماه بعض المفكرين بـ "الكامنة الثورية" (الفالح، ص١٧٧) وهي موجودة عند ابن خلدون وترتبط بتواجد العصبيات المتعددة في الأقاليم، بحيث تكون الغلبة للعصبية الأقوى، وتنتهي الثورة مع الانتصار والسيطرة، وقد تكون هذه المرحلة عنيفة، وقد لا تكون كذلك، فالأمر يتعلق بالدولة ومدى ضعفها، ومن أين تكون الحركة الثورية هل هي من المركز أو من الإطراف ؟ ويشير ابن خلدون إلى وجود مناصرين للوضع الجديد من المضطهدين أيام الحكم السابق ، حيث يقول ابن خلدون في مقدمته بوجود "مناصرين للوضع الجديد من المقهورين أو مَن كانوا يستشعرون الظلم، وكذلك يتفق مع مَن بقي أيضًا منتبذًا عنه من عشائر أمتهم" (ابن خلدون، ص١٤٦).

٢/١ – بداية الثورة عند ابن خلدون:

تبدأ الثورة عند ابن خلدون بنقطة حاسمة بن عهدين لدولتن، نهاية دولة ضعيفة، وبداية دولة قوية، فالطور الأول وهو النشأة "طور الظفر بالبغية، وغلب المدافع، والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها، في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد، وجباة المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لأن ذلك هو مقتضي العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها". (ابن خلدون، ص١٧٥) فالاستيلاء على الملك يكون عند ابن خلدون بالقوة، وهنا يكون القائد وأتباعه يعيشون ظروفًا واحدة، ويتشاركون بكافة أمور حياتهم، وهنا يوضح ابن خلدون أن هناك عقد ضمني بين الملك وأعوانه المساندين له ي حال التغلب على الدولة السابقة بالاشتراك بمكتسبات النصر.

ورد ابن خلدون الشجاعة إلى الداوية حيث اعتبر الجيل الأول في الدولة هو الأشجع، فقد جاء في مقدمته: "هذا الجيل الوحشي اشد شجاعة من الجيل الآخر فهم اقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم"،

(ابن خلدون، ١٩٩٩: ١٣٨) وبالتالي فالثورة وقادتها تكون بالجيل الأول على يدهم يزول ما تبقى من الدول السابقة ويبدوان بإنشاء دولتهم القوية ، والتي تكون على أساسين حددهما ابن خلدون بما يلي: الأول: الشوكة والعصبية المعبر عنهما بالجند. الثاني: هو المال والذي منه نفقات الجند ولاحتياجات الملك في إدارة الدولة. وتكون الدولة في بدايتها قويه ذات أسس سياسية واقتصادية متينة، ومع تطورها تزداد قوه وحضارة، وبنفس الوقت تبدأ عندها بذور الانهيار والفناء بسبب فساد الأسس التي قامت عليها الدولة، حيث تأتي عصبية أقوى (ثورة على الوضع القائم لتنهيه ويبدأ من جديد عهد آخر).
(الجابري، ٢٠٠١)

٣/١– أهداف الثورة عند ابن خلدون:

أما إذا حاولنا معرفه أهداف الثورة والتي ترتبط بالعصبية فهي عند ابن خلدون المُلْك هو غاية العصبية حيث يذكر ابن خلدون في مقدمته: "أن المُلْكُ هو غاية العصبية وإنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة المُلْكُ إما بالاستبداد، أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك". (ابن خلدون ، ص١٣٩ – ١٤٠) ويضيف "فالتغلب الملكي غاية للعصبية " (ابن خلدون، ص١٣٩) بالإضافة إلى تحقيق تغير اجتماعي واقتصادي في حياة المجتمع ويبدو هذا جليًا عندما حدد ابن خلدون صفات أهل العصبية الجديدة والأمور التي سيحرص هؤلاء على تحقيقها في المجتمع وهي بطبيعة الحال ستحقق الرفاهية والعدالة للناس الذين شهدوا أسوأ طور في حياة الدولة وهو طور الهَرَم والانهيار.

٤/١ – صفات قادة الثورات:

قام ابن خلدون بالتطرق إلى الصفات التي يتحلى بها أهل العصبية وهم قادة الثورة والذين على أيديهم يحدث التغير في المجتمع سواءً كان التغير السياسي بالوصول إلى السلطة أو التغير الاجتماعي بالحرص على إيجاد قيم أخلاقية وسلوكية وتحقيق العدالة بن أفراد المجتمع حيث يذكر ي مقدمته: "فإذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم من الغلب على كثير من النواحي والأمم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات، والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف، وحمل الكل وكسب المعدم، والصر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال

في صون الأعراض، وتعظيم الشريعة، وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عندما يحد دونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الأكابر والمشايخ، والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم، والتبذل في أحوالهم، والانقياد للحق ، التواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد، هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا أن يكونوا ساسه لمن تحت أيديهم" (ابن خلدون، ص١٤٣).

من الملاحظ؛ أن ابن خلدون اعتبر هذه الصفات والأخلاق الكريمة من أخلاقيات السياسة وبها يستحق هؤلاء أن يكونوا قادة، وإذا ما حدث أن تدهورت الأخلاق وذهبت هذه الفضائل فإن الأمر خطر وينبئ ببداية النهاية حيث يذكر في مقدمته "وعكس ذلك انقراض الملك بفقدان الفضائل السياسية منهم ويخرج الملك منهم ويتبدل به سواهم" (ابن خلدون، ص١٤٤). من الملاحظ؛ أن الشروط السابقة يجب استمرارها لضمان استمرارية الثورة، أما عند تبدل الأحوال بتغيرها لعكسها والذي يأتي من التطور الطبيعي لعمر الدولة عند ابن خلدون ، عندئذ تكون بداية النهاية وتبدأ عصبيات أخرى بالتأهب للثورة على الوضع القائم وإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح.

ثانياً : الأسباب التي تؤدي إلي حدوث الثورات

عند الحديث عن الثورة فلا بد لنا أن نتذكر العصبية عند ابن خلدون، وال تعتبر عامل أساسي في أي حركة تغير في المجتمع الإنساني، فالعصبية عند ابن خلدون تكون بالالتحام والاتحاد سواءً كان ذلك بسبب النسب أو الولاء أو الحلف فهي القوة الكبيرة التي تكون فيها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وقد حدد ابن خلدون مجموعة من الأسباب ظهرت بمواقع مختلفة في مقدمته استطعنا الوصول إلى ما نعتقد أنه سبب لحدوث الثورات عند ابن خلدون وهي كما يلي: (زياد، ٢٠٠٩)

١/٢ – العصبية:

العصبية عند ابن خلدون هي المحرك للثورة ويبدو ذلك من خلال ما يلي:

(١) تحتاج الثورة عند ابن خلدون ح تنجح إلى عصبية قوية تفوق العصبيات الموجودة في مجتمع ما للوصول للملك، يذكر في مقدمته "فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلا وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات وتصبح عصبية واحدة" (ابن خلدون، ص١٣٩) وبما أن ابن خلدون ذكر سابقًا أن الغالب يرغب دائمًا بالمزيد من الغلبة والنصر والتوسع لذلك تعتبر العصبية القوية سبب للمزيد من الثورة والتوسع، وهنا إشارة كذلك إلى ما بعد النجاح بحصول الاتحاد بن العصبيات المتعددة، وهذا يذكرنا بالشروط التي وضعها تيلي (Tilly) للثورة حيث نجدها عند ابن خلدون متوفرة فالقوى المتنافسة موجودة بالعصبيات وعجز الدولة عن المواجهة والتصدي لهم موجودة، كذلك درجه ومستوى الالتزام لتحقيق الهدف بالوصول للسلطة موجود، وكذلك تشكيل التحالفات بن القوى المتنازعة.

(٢) اعتبر ابن خلدون أن العصبية هي السبب المباشر في حدوث الثورات، وكلما تعددت العصبيات وتنوعت تزداد الخلافات، وتظهر الثورات وإسقاط الحكم، حيث يذكر :" الدول التي تخلو من العصبيات يمتد فيها الحكم فترة اكبر ويكون فيها استقرار ولا تحتاج إلى عصبية كثيرة ، ومثال ذلك مصر والشام". (ابن خلدون، ص١٣٢).

(٣) المُلْكُ عند ابن خلدون يأتي بالغلب ، والغلب يكون بالعصبية والبقاء هنا يكون للأقوى الذي يفرض على الآخرين قبوله وفرض الطاعة له. "الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية إذا أحست بغلب الرئيس لهم أقروا بالإذعان والإتباع له". (ابن خلدون، ص١٣٢)

(٤) أشار ابن خلدون إلى دور الدين في دعم العصبية وحدوث الثورة أو الانقلاب حيث يذكر بمقدمته "وحدة الدين أيقظت وحدة النسب فازدادت العصبية بذلك قوة وأصبحت قادرة على إحداث انقلاب في الأوضاع". (ابن خلدون، ص١٦٤) والدين إذا وجد مع وجود هدف مشترك فإن الغلبة تكون حيث ذكر بمقدمته " إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله" (ابن خلدون، ص١٥٧)

٢/٢ – الأسباب السياسية:

- ضعف الجيش وقلة أعدادهم بحيث لا يعتمد عليهم في الدفاع عن الدولة، وهذا يرتبط بالأوضاع الاقتصادية بسبب الترف وزيادة الضرائب على الناس، حيث يذكر ابن خلدون ذلك في مقدمته: "يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثًا ورابعًا إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط ألدوله ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو مَن هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء" (ابن خلدون، ص١٦٩).
- ظلم الملك وقسوته قد تكون من أساليب الثورة عليه، وقد اعتبر ابن خلدون الملكية المستبدة أمرًا طبيعيًا، وكما أشار بعض الباحثين فإن ذلك يعود إلى طبيعة الظروف السياسية التي عاش في ظلها ابن خلدون حيث التغلب للساحة السياسية والحكم ي أذهان المسلمين سلطة مطلقه. (الخاتم، ٢٠٠٢) إذا كان الملك ظالما وقاسيًا على رعيته لجئوا إلى الكذب والمكر والخديعة وربما يلجأ هؤلاء لقتل الملك. "فإن الملك إذا كان قاهراً ًباطشاً بالعقوبات ًمنقباً عن كوارث الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربما اجمعوا على قتله فتفسد الدولة". (ابن خلدون ، ص١٨٩) والشواهد المعاصرة على ذلك ما حصل في تونس، وليبيا، ومصر، واليمن، وسوريا.

- وقد تكون الثورة بسبب صغر سن الحاكم أو الملك أو لضعف فيه، وهنا يكون انقلاب الملك من قبل الوزراء والحاشية، حيث يذكر ابن خلدون في مقدمته: "فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسيده في الأكثر ولاية صبي متغير أو مضعف من أهل المنبت المرشح للولاية". (ابن خلدون، ص١٨٥)
- كما أشار ابن خلدون إلى أن النجاح بالوصول إلى الحكم يكون دافع للمزيد من الثورات بهدف الوصول إلى الملك كما يذكر ابن خلدون بمقدمته: "ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافاتها أو مانعتها كانوا قتالا وأنفارًا ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم وأن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضًا وزادت قوة التغلب إلى قوتها".(ابن خلدون، ص١٣٩)
- إن التنوع بن القبائل والعصبيات من أسباب الثورات المتلاحقة بسبب الاختلاف في الآراء والأهواء حيث لكل منها عصبيه تدافع عنها عندها يكثر الخروج على الدولة (بالانقلابات). "إن الأوطان كثرة القبائل والعصائب قل إن تستحكم فيها دولة والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها هوى وعصبية تمانع دونها فيكثر الانقضاض على الدولة والخروج عليها" (ابن خلدون، ص١٦٤) وضرب مثال أفريقيا والمغرب البربر حيث ارتدت البرابرة اثني عشرة مرة.
- كما يشر ابن خلدون إلى نقص العدل والظلم الذي يؤدي إلى مزيد من الصراعات وبالتالي خراب العمران أن الظلم مخرب للعمران وأن عائده الخراب في العمران على الدولة بالفساد وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغر حق أو فرض عليه حقًا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه والأسباب إلى أخذ الأموال وما أخذها مجانًا والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم (ابن خلدون ، ص٢٨٦ – ٢٩٠) فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعه وتنتقص الدولة سريعًا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاص، وهذا ما أشار إليه محمد بن مختار الشنقيطي عندما تحدث عن الصراعات الداخلية في الدول العربية محللاً أسبابها بأن افتقاد الناس إلى العدل وعدم الشعور بالمساواة يولد عند الناس إحساس عميق بالظلم ، مما يثير عند الناس التحرك للاحتجاج على الاوضاع المترديه. (محمود، ٢٠٠٨)

٣/٢– الأسباب الاقتصادية:

- الحاجة إلى المال بسبب زيادة النفقات يضعف السلطان الذي يلجأ إلى تغطية ضعفه بهدر الأموال، ويقوم بإهمال الإنفاق على الدولة والجنود، لذلك يبدأ المجاورين بالتطاول على الدولة حيث يذكر "تتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقلة غنائه فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يغتني فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي والدولة فتنحل عراها.(ابن خلدون، ص٢٩٧) ونلاحظ حاليًا كيف تتحكم الدول الغنية بالدول الفقرة سياسيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا، واجتماعيًا، وترسم سياساتها بسبب الحاجة إلى المال، مما يجعلها تابعة وهامشية.
- كثرة الضرائب والغرامات "إن المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهوته عن القتل والتلف" (ابن خلدون، ص١٤٢) وهنا يشير ابن خلدون إلى تمادي الدولة وتسلطها بفرض الضرائب كما يشير إلى بعض النفوس الأذبية المعارضين لسياسة الدولة في ذلك وقد يكون هؤلاء نواة الثورة أو مساندين لأي حركة تمرد خارجية نتيجة الشعور بالظلم.

والسؤال هنا لماذا كثرة الضرائب ؟ يشر ابن خلدون إلى أن الدولة تصبح غايتها أخذ ما بأيدي الناس وتركز على استبقاء الأحكام والعقوبات التي تكثر الجبايات لها، وذلك حتي تستطيع تغطية النفقات المتزايدة لها، فابن خلدون يذكر ذلك في المقدمة:

"جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا سوى ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأحوال حرصًا على تكثير الجبايات". (ابن خلدون، ص١٥٢) ويشير كذلك إلى أن الدولة تبدأ بمشاركة الناس بأرزاقهم، فهو يذكر "أن القبيلة إذا غلبت بعصبيتها بعض التغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعيم والخصب في نعمتهم وخصهم". (ابن خلدون، ص١٤٠)

ويشير ابن خلدون إلى علاقة طردية ما بين ضعف الدولة وزيادة تسلطها على أموال وأرزاق الناس، حيث أنه كلما زادت الدولة بالضعف كلما زاد الترف والنفقات، وكلما زادت مشاركتها للناس أملاكهم وإنتاجهم، حيث يذكر ابن خلدون "بعد الانتصار تشارك الدولة الناس بأملاكهم وإنتاجهم وبمقدار الترف الذي تنعم به الدولة يقاس بذلك ضعفها وتعتبر في مرحلة الانطلاق لثورة جديدة تغير الأوضاع القائمة لتبدأ من جديد". (ابن خلدون ، ص١٤١) وقد أشار بعض الدارسين إلى أهمية العامل الاقتصادي في قوة الدولة من ناحية وسببًا في انهيارها عندما تنتقل النفقات من الضروريات في الحياة إلى الكماليات التي يتم التنافس في اقتنائها.

(عقاق، ٢٠٠١) حيث يذكر ذلك ابن خلدون " ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وجعل لهم ما فوق الحاجة من الغني والرفه، دعاهم إلى السكوت والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعه البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر"، وهذا السبب في انهيارها كما كان السبب في ازدهارها في السابق.

٤/٢ – الأسباب الاجتماعية:

- أشار ابن خلدون إلى التدهور الأخلاقي كسبب للثورة على هذا الواقع ، حيث يذكر في مقدمته: "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة جعلهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية جملة ولا تزال في انتقاض إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيًا عليهم ي سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك". (ابن خلدون، ص١٣٩)
- وقد أشار ابن خلدون إلى طبيعة الجيل الذي به تنتهي الدولة والذي اعتبره ممهد للثورة بالقضاء علي جيل سابق ليسجل مكانه جيل جديد، حيث يذكر في مقدمته "وجود جيل لا يعرف الإحكام ولا يستشعر القهر والظلم افسدوا عصبيتهم، فناء الجيل الذين خرجوا من قبضه الذل

والقهر والقوه وتخلقوا به وافسدوا من عصبتهم حتي نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الإحكام والقهر ولا يسأم بالمذلة فنشأت بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها علي المطالبة والتغلب". (ابن خلدون، ص١٤١)

- تدني مستوى معيشة الناس وانتشار الفقر بسبب الفساد وكثرة الضرائب والجبايات ونعود في ذلك إلى قول ابن خلدون في مقدمته: "ويشير ابن خلدون إلى وجود مناصرين للوضع الجديد من المضطهدين أيام الحكم السابق حيث يقول ابن خلدون في مقدمته بوجود "مناصرين للوضع الجديد من المقهورين أو مَن كانوا يستشعرون الظلم، وكذلك يتفق مع مَن بقى أيضًا منتبذًا عنه من عشائر أمم". (ابن خلدون، ص٢٩٨)

ثالثاً : أشكال وأساليب الثورة الاستيلاء علي الحكم

حدد ابن خلدون طريقتين للوصول إلى السلطة في نهاية عمر الدولة السابقة وطور نشأة الدولة الحديثة:

١- الثورة من الداخل:

تكون هذه الطريقة سليمة بدون قتال عنيف، حيث يقوم الولاة في أطراف الدولة المرامية والبعيدة عن المركز بالتمرد، وربما تبدأ الخلافات بن هؤلاء الولاة علي الملك، وعندها سيكون الملك للقوي وصاحب العصبية الأقوى كما حدث في دولة بني العباس فالحرب هنا تكون بين الولاة والدولة الضعيفة بل بين الولاة بعضهم البعض، إذ الدولة من الضعف بحيث لا تقوى علي الوصول لهؤلاء المتمردين. ويشر ابن خلدون إلى انقسام الدولة إلى دويلات قد تكون اثنتان أو ثلاثة وضرب مثال الأندلس عندما استحدث عبد الرحمن الداخل دولة خاصة به، وكذلك ملوك العجم بالمشرق، وفي عصرنا الحاضر نشاهد الأتراك في شمال العراق، وجنوب السودان في السودان، وبعض القبائل في ليبيا بعد زوال أنظمة الحكم في تلك الدول. "كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فينقسم أعياصها أو يغلب من رجال دولتها الأمر ويتعدد فيها الدول". (ابن خلدون،٢٩٣) كأن ابن خلدون يشير إلى ما يعرف اليوم بالحكم الذاتي أي الحركات الانفصالية لدى بعض الدول، كما في العراق والسودان اليوم.

٢- الثورة من الخارج :

وتكون من الدول والقبائل والأمم المجاورة، ويكون قائدها أما صاحب دعوة معينة أو صاحب عصبية في قومه، فيقودهم إلى الملك حيث يذكر ابن خلدون في مقدمته "... يخرج علي الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما اشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرًا في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك..... ويستولوا عليه......" والنوع الثاني: "نوع الدعاة والخوارج علي الدولة وهؤلاء لا بد لهم من الطالبة لأن قوم وافية بها فإن ذلك يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك... فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكور وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالحرب". (ابن خلدون، ٢٩٨ ، ٢٩٩) يعود ابن خلدون ويجعل الاحتماليين واردين معًا فالثورة بذلك تبدأ من أطراف الدولة التي تقل السيطرة عليها وتضعف حمايتها ويبدأ الخوارج علي الدولة بالاقتراب من المركز أو الاستقلال بدولة صغيرة، وهي التي أشار إليها ابن خلدون سابقًا من أن الغالب يرغب دائمًا بالمزيد، فالذي يبدأ من الأطراف فإنه سوف يواصل إلى تحقيق المزيد من النصر بالوصول إلى مركز الدولة. ويقول ابن خلدون "لذلك فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور فتتجاسر الرعايا علي بعض الأطراف.....

حتي تصير في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة". (ابن خلدون، ٢٩٥)

وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين عند تحليلهم لأسباب سقوط الدولة العثمانية، حين أشاروا إلى آراء ابن خلدون بفناء الدول القديمة المستقرة والتي يفنيها سببان: الأول؛ الحركات التي تطالب بالاستقلال والتي تبدأ من الأطراف، وهذه تبدأ مطالبها عند إحساسها بضعف الدولة فتقوم بالانفصال وتكوين كيان مستقل خاص بها كالأكراد في شمال العراق. والثاني؛ لانقضاء الدولة المستقرة يأتي من دعاة وخوارج داخل هذه الدولة حيث تكون البداية بمطالب صغيرة، ويستخدم هؤلاء السلاح النفس الوهمي والمطالبة في طلب الحقوق وصولاً إلى مطالب تمس هيبة الدولة ونظامها، ومما يساعد هؤلاء الخارجين علي نظام الدولة هو فتور الدولة في إتباعهم وملاحقتهم، وتقوم في النهاية بالتسليم لهم، وهنا تكون النهاية كون الحلل غزاها من كل الجهات، فهي من الضعف والهرم بحيث لا تستطيع مواجهة تلك التحركات، كما حصل للدولة العثمانية إبان ضعفها.... (زياد، ٢٠٠٩) ويرى ابن خلدون بأن المحرك للثورة هو الحكام والدول بحكم سيطرتهم علي الآخرين....فأما المدن والأمصار فعدون بعضهم علي بعض تدفعه الحكام والدول بما قبضوا علي أيدي من تحتهم من الكافة.....(ابن خلدون، ١٢٧)

رابعاً : نتائج الثورة (ما بعد نجاح الثورة)

يشير ابن خلدون إلى أن توزيع المناصب يبدأ بعد النجاح والفوز بالملك، كما يشير إلى أنه من هنا تبدأ بدايات الاختلاف حيث التفرد بالحكم واستبعاد أهل العصبية من قبل الحاكم واستبدالهم بآخرين وحتي لو كانوا من قوميات مختلفة. وكما يذكر ابن خلدون عن الحواضر العربية "أنها كانت أعيالا علي غيرها في المدافعة والممانعة، وأن العرب كانوا يرضون بالحاكم الغاشم حتي وإن كان أجنبيًا ؟ استلهامًا للحكمة التي تقول "سلطان غشوم ولا فتنه تدوم" (ابن خلدون، ١٣٤) وهذا ما أشار إليه أبو نائل في تفسيره لحالة التبعية العربية ، بأن لها جذور تاريخية أقدم من ظاهرة الإمبريالية الاستعمارية (أبو نائل، ٢٠٠٢) وتعود الحلقة وتسير حسب التسلسل الزمني الذي افترضه ابن خلدون من بداية قوية إلى نهاية ضعيفة.

وكمناقشة عامة وفي النهاية يُطرح تساؤل، هل قصد ابن خلدون من خلال طروحاته الثورة بالمعني الذي ورد معنا عند تعريف الثورة ؟ وكمحاولة للإجابة فإننا إذا أخذنا بشرط الوضع الثوري عند تيلي (Tilly) فنلاحظ أن شروطها متوفرة عند ابن خلدون وهي كما يلي:

(١) وجود القوى البديلة المتنافسة كبديل للسلطة السابقة، وهي حلول عصبية قوية بدل التي خضعت وانهارت.
(٢) درجة ومستوى الالتزام والدعم للمطالب، فنلاحظ أنها عند ابن خلدون تجمع أفراد العصبية وتوحدهم وتجعل عندهم الالتزام حتي الوصول للسلطة.
(٣) تشكل التحالفات بين القوى المتنافسة، فقد أشار ابن خلدون عند نجاح العصبية الأقوى بالوصول إلى الملك فإن بقية العصبيات تنظم تحت لوائها.
(٤) عجز أو عدم رغبة الحكومة في مواجهة القوى، وهنا يكون الطور الأخير للدولة حسب رأي ابن خلدون. (جمعة، ١٩٩١)

وقد حاول بعض المفكرين المقارنة بين طروحات ابن خلدون ولينن في الوضع الثوري، حيث أنه عند لينن وجود تنظيم ما جماهيري وهو يعني وجود وضع ثوري، أما عند ابن خلدون فإن الوضع الثوري يكون بهرم الدولة ووجود عصبية مانعة، إضافة إلى الأزمة الاقتصادية، وغالبًا ما تكون الثورات علي أيدي إحدى العصبيات التي كانت منطوية في عصبية الدولة كون هؤلاء لديهم الخبرة في الحكم (الجابري،١٩٧١) أي أن هؤلاء نواة الثورة والذين يكونون في وضع ساكن إلى أن تحين الفرصة المناسبة لهم. (لاحظ الانشقاقات علي أنظمة الحكم في اليمن وليبيا وتونس وسوريا في عصرنا الحاضر إبان الربيع العربي) وقد أشار بعض الدارسين إلى عصر الدولة العباسية، والذي أدخل الموالي كما دخل الأتراك وغيرهم، وهؤلاء بدئوا بالتشاجر كل يتعصب لجماعته، وفي ظل هذه الظروف قوى جند المرتزقة، واستولوا علي خزنة الدولة و أصبح الخليفة لا قيمة له. (زين العابدين،٢٠٠١)

خامساً : استشراف مستقبل الربيع العربي في ضوء طروحات ابن خلدون

جاء في نهاية الباب الثالث الخاص بالدولة وأطوارها ما معناه
"أن التطلع إلى معرفة مستقبل الدول ، من جانب الحكام والمحكومين علي حد سواء، يزيد حدة وإلحاحًا في نهاية كل دور من أدوار الدولة، عندما تهرم وتضعف عصبيتها (قوتها)، فيقل أنصارها ويكثر أعداؤها، وفي نفس الوقت عندما يستبحر العمران (التقدم الحضاري) وتتعدد الصنائع والعلوم (التكنولوجيا والمعرفة) فتتداخل، لمدة معلومة، مميزات البداوة (أساس الدولة المستحدثة)، ومميزات الحضارة (معالم الدولة القائمة أو الحديثة علي زمن ابن خلدون). يبدو أن هذه المقولة تنطبق حرفيًا علي المشهد الثوري في الدول العربية، وهذا يدل علي أن مجريات الأمور في المشهد العربي التي نحاول قراءتها وتفسيرها، علي تعقدها وغموضها بالنظر المباشر، إنما هي من طبائع أطوار ومراحل تطور الدول والمجتمعات عبر التاريخ، طبقًا لرؤية ابن خلدون.

لقد وضع ابن خلدون الأسس التي يُفسر بها الصراع، بل ويحدد نتيجته أيضًا حتى بعد أكثر من ٦٠٠ سنة! يتعرض ابن خلدون في الباب الثاني من المقدمة إلى أن تأسيس الدولة لا يكون إلا بالعصبية (أجلى مظاهرها القوة العسكرية) وهي قوة طبيعية. فهي إذن الوسيلة الضرورية، أما الأصل فهو شأن آخر: "إن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما عن نبوة أو دعوة حق". هنا يميز ابن خلدون بين الوسيلة والأصل في قيام الدولة، الوسيلة هي القوة العسكرية (بتعبرنا العصري) والأصل هو الدين. لا يكتفي ابن خلدون بهذا، بل يبحث في العلاقة الجدلية بين الأمرين فيقول من جهة: "إن الدعوة الدينية من غر عصبية لا تتم"، ومن جهة ثانية: "إن الدعوة الدينية تزيد العصبية قوة علي قوة العصبية".

يقول المفكر عبد الله العروي بعد أن يبن الطبيعة الجدلية بين "العصبية" و "الدين": "إن ما يتغير، أو يُحول في التعبير الخلدوني، هو ظهور مسلك آخر إلى العلم وبروز قواعد تهذيبية وتنظيمية جديدة، تخالف وأحيانًا تعارض الأولى دون أن تنفيها أبدًا نفيًا تامًا".
وما يعنيه العروي هو أن هناك اتجاهًا ثالثًا يقع بعد العصبية والدين وهو العلم، أو بالتعبير الشائع العلمانية أو الليبرالية، وهذا الاتجاه قد يخالف أو يعارض البداوة ولكن دون أن ينفيها تمامًا. يوضح العروي هذا التحول من أقوال ابن خلدون كالآتي: "علي قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع المُلك". (المشهداني، ٢٠٠٩)

وعطفاً على ما تقدم نلاحظ؛ أن الشارع العربي يمر باضطرابات ومواجهات وعدم استقرار، منها ما تطور إلى صدامات مسلحة وحرب شاملة مثلما حصل في ليبيا (ثورة من الداخل والخارج) واليمن، وما ما تطور إلى قمع دموي من جانب السلطة فقط مثلما يحصل في سوريا (ثورة من الداخل)، وما ما أُخمد بعد أيام قلائل من اندلاعه مثلما حصل في مصر وتونس والبحرين وغيرها، ويبدو أن المنطقة كلها مرشحة لهذه الأحداث. لكن الدول التي أُخمدت تلك الاحتجاجات لازالت غير مستقرة، ولازالت سفينتها تتلاطم مع الأمواج العاتية التي يتقاذف بها الشعب والبلد معًا، فتارة ما يسمي بالمعارضة تزيد من مطالبها مهددة بالخروج إلى الشارع ثانيةً إن تم تجاهل مطالبها، وتارة توقع هدنة قصيرة الأمد لترى ما ستؤول إلا الأمور.

كل هذه الاضطرابات والمواجهات تتشابه في ظاهرها المعلن وهو البحث عن الحرية والديمقراطية والمطالبة بالمزيد من الإصلاحات، ولكن هذه الإصلاحات المطالب بها ظلت مبهمة وغير واضحة على الطرفين المتحاربين الشعب والسلطة معًا، فلا الشعب يعرف تمامًا ما يريده لكثرة أطرافه واختلاف آرائهم التي تكاد معظمها لا تتقارب لا من بعيد ولا من قريب، لا بل والأكثر من ذلك بأنهم كانوا أعداء بالفكر والعقيدة في الأمس القريب فكيف لهم أن يتحدوا، ولا السلطة قادرة على المضي في طريق الإصلاحات لأنها ترى أن هي فتحت الباب أمام هذه الإصلاحات فإن العروش والكراسي سوف تهتز لا محال وعند ذاك ستكون المصيبة أكبر، وهو ما لا تقبله وترضاه كل الحكومات الموجودة في المنطقة بما فيها المستقرة نسبيًا الآن.

إن الشعب العربى مطالب هذه الأيام بالمزيد من التركيز والتوحد، لأن حالته هذه لا يمكن أن تتكرر دائمًا ولا يمكن إطالتها أكثر نظرًا للتضحيات الجسام التي يقدمها كل يوم، ولابد للمجتمع الدولى وخصوصًا الدول المؤثرة ما التي بيدها زمام الأمور أن تقف موقفًا موحدًا من كل هذه الاضطرابات، وأن تقيس الأمور بنفس المقياس دون النظر إلى المصالح والحكومات والأمور الأخرى التي باتت معروفة للكل، لأن الأهداف تبدو واحدة فلابد للمواقف أن تكون واحدة أيضًا، وعند ذاك يمكن تسميته بالربيع لأنه سيحول مجرى الحياة إلى الأحسن، وسيفتح صفحة جديدة بيضاء سيكتب الشعب عنوانها، وسيقوم واقع جديد مُشيد علي أسس من الحرية والديمقراطية التي يصبو إلا الجميع ، وليس كما نراه الآن خريفًا حزينًا.

خاتمة واستنتاجات

من خلال ما تقدم من عرض، وتحليل، واستقراء ، ومناقشة لموضوع الثورة عند ابن خلدون، نخلص إلى الاستنتاجات التالية مرتبة حسب أهداف الدراسة وأسئلتها:

(١) **فيما يتعلق بمفهوم الثورة**: أن ابن خلدون لم يأتي علي ذكر الثورة كمصطلح إلا فيما ندر لكننا لاحظنا أن الحديث حول الأوضاع التي تفسر علي أنها وضع ثوري موجودة لديه، فالحروب والثورات عند ابن خلدون هو أمر طبيعي وحتمي يرتبط بتطور الدولة وفناءها، لذلك فقد وجدنا بأن لحظة البداية للثورة عند ابن خلدون موجودة وهي محددة بوقت هرم أو فناء الدولة الضعيفة، فتكون الثورة من قبل عصبية قوية تنهي الوضع المتردي لتنشأ دولة قوية من جديد.

(٢) **فيما يتعلق بأهداف الثورة**: فقد وضع ابن خلدون أهداف للثورة وكان أهم هدف هو الوصول إلى الملك والحكم، بالإضافة إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية المتردية، وقد حدد ابن خلدون صفات قادة الثورات وال تركزت حول الصفات الأخلاقية والقوة والشجاعة.

(٣) **فيما يتعلق بالأسباب التي تؤدي إلى حدوث الثورات**: تبين لنا بأن الوضع المتردي للدولة التي تعيش الطور الأخير من حياتها وما يحيط هذه الفترة من عوامل وأسباب التردي والتي نستطيع في النهاية حصرها بثلاثة أسباب رئيسة وهي: العصبية عند ابن خلدون هي المحرك للثورة وتعتبر الثورة شكل من أشكال العصبية، فالثورة حتي تنجح تحتاج إلى عصبية قوية تفوق العصبيات الأخرى، واعتر ابن خلدون العصبية هي السبب المباشر في حدوث الثورات، وكلما تعددت العصبيات وتنوعت زادت الخلافات وتظهر الثورات، والنجاح في الثورة يزداد إذا ارتبطت بدعم ديني لها.

أما **الأسباب السياسية**، فهي مجموعة الظروف المتعلقة بالسلطة الحاكمة في الدولة والتي تبدأ بالطور الثاني من أطوار الدولة، حيث الفساد وعدم القدرة علي الإدارة وتكون بعيدة عن شعوبها إذ تبدأ الحواجز بالنمو نتيجة تفرغ الحكام لحياة اللهو والبذخ وعدم الاهتمام بشؤون الدولة، وهذا بطبيعة الحال ينال الجند أساس قوة الدولة (الشوكة والعصبية) إذ يقل الإنفاق علي الجند، ويقل عددهم في بعض الأحوال، وفي أحوال أخرى يتم استبدالهم بجنود مرتزقة، هذه الظروف تؤدي إلى تغذية الدسائس والمؤامرات التي تحاك للإطاحة بالحكم للتخلص من هذا الوضع المتردي للسلطة.

الأسباب الاقتصادية، وهي التي تتعلق بالاقتصاد وميزانية الدولة، ومدى قدرتها أو عجزها عن الوفاء بمتطلبات الحكم من توفر الحياة الكريمة لأفراد الشعب. وعند ابن خلدون ترتبط الأوضاع الاقتصادية بالأوضاع السياسية وهما تؤثران في بعضهما البعض، فبسبب حياة اللهو والبذخ التي يعيشها الحكام والتي تحتاج إلى نفقات كثيرة لا يكون هناك من سبيل لتأمينها إلا بأخذ ما بأيدي الناس ومشاركتهم أرزاقهم، فتقوم الدولة بفرض الضرائب والجبايات والمغارم وتتعسف بها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تقوم بمشاركة الناس في أرزاقهم وأملاكهم ومصالحهم هذا الأمر يؤدي إلى الركود الاقتصادي وتدني مستوى معيشة الناس ويزداد عدد الفقراء والمظلومين نتيجة لهذا الوضع، وهنا يكون الوضع مهيأ للناس لقبول مَن ينقذهم من هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية وسيكونون عونًا لمن يقود لواء الثورة علي الظلم.

وأخيرًا؛ **الأسباب الاجتماعية**، وهي ذات علاقة بالأوضاع الاقتصادية والسياسية ومكمله لهما، حيث تدني مستوى معيشة الناس بسبب الفساد وكرة الضرائب، وعدم إقامة العدل في ظل التطاول علي السلطة، كما أن وجود جيل وهو التالي في حياة الدولة هذا الجيل الذي نسي الشجاعة، والإقدام، والحماية، والمدافعة، تجعل الوضع فيه خطورة علي المجتمع إضافة إلى المظلومين بسبب التعسف بالضرائب والذين لا يستشعرون العدل والإنصاف لحقوقهم. كذلك يلعب البعد الأخلاقي عامل مهم عند ابن خلدون، فتقلص القيم الأخلاقية في تعامل الناس بسبب ضعف الدولة وعدم قدرتها علي مراقبة ومحاسبة الناس يجعل الفساد والتحايل والجرائم الأخلاقية لعدم وجود الرادع للناس وهو الدولة عند ابن خلدون.

هذه العوامل تشكل أسباب وأوضاع ثوريه عند ابن خلدون، وهي التي يعود ويربطها بوجود العصبية الضعيفة التي تكون سبب ي نجاح التحرر والثورة علي الأوضاع المتردية للدولة الهرمة واستبدالها بعصبة قويه تبدأ من جديد.

(٤) **فيما يتعلق بأشكال الثورة**: فقد وجدنا أن الثورة والاستيلاء علي الحكم يكون إما من الداخل، وتكون غالبًا من الأطراف حيث يقوم الولاة بالتحرر والاستقلال عن الدولة التي لا تقوى علي ملاحقتهم والوصول إليهم، وهنا تكون بدون قتال. وإما تكون الثورة من خارج الدولة من قبل الدول المجاورة، وهؤلاء أشار إليهم ابن خلدون بالدعاة والخوارج حيث يكون قائدها صاحب دعوة معينة، وبهذه الحالة تدور الحرب والقتال إلى أن يحصل النصر للأقوى.

(٥) **وفيما يتعلق بنتائج الثورة**: يشير ابن خلدون إلى أنه وبعد نجاح الثورة تبدأ عملية توزيع المناصب والمشاركة بن أهل العصبية التي بها وبتعاونها نجحت الثورة بالاستيلاء علي الحكم، ومن ثَم تفرد الحاكم بالسلطة إلى أن تصل الدولة إلى النهاية حسب نظرية ابن خلدون.

هذه المقدمات قد تكون هي الظروف التي تحرك عصبية قوية للثورة علي الوضع القائم وإنهائه والاستيلاء علي الحكم، والذي هو هدف الثورات وإحداث التغيرات المختلفة في حياة الناس ، فالثورة عند ابن خلدون هي أحد أشكال العصبية.

(٦) إن النقد الذي يمكن توجيهه للفكر الثوري الخلدوني، مبعثه محدودية وجهة نظر ابن خلدون بحدود الحالة الاجتماعية والسياسية التي شاهدها وعاش فيها، وبحدود الوقائع التاريخية التي اطلع علي تفاصيلها. أما البيئة التي عاشها فهي خاصة بالحياة البدوية والحياة الحضرية للقبائل العربية الإسلامية وما تضمنا من أحداث التكوين والهرم والانهيار.

في ضوء ما تقدم من عرض وتحليل ومناقشة ونقد، يمكن القول أن مقولات ابن خلدون شكلت مفاهيم نظرية موفقة إلى حد كبير في وصف وتفسير الواقع الاجتماعي العربي، وتعيين أشكال الثورات وأساليبها وأسبابها في مثل تلك البيئات الجغرافية، وهي تدل علي تفكر فاحص ونافذ ومتعمق في الحوادث الاجتماعية وتعليل الوثائق التاريخية. وتوصي الدراسة بإجراء المزيد من الأبحاث التحليلية والنقدية حول نظرية الثورة عند ابن خلدون للتعرف علي مصادرها وأشكالها وأسبابها ي ضوء المتغيرات التي يشهدها المجتمع المعاصر في ضوء الربيع العربي والعولمة ومتغيراتها.

المصادر والمراجع :

- **القران الكريم**
- ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون** ، الفصل الثامن، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٩٩.
- أبو نائل، عبد الفتاح، "**الجذور التاريخية للتبعية العربية**"، مجلة آفاق، العدد (٤)، (١٩٩٤). - **تاريخ ابن خلدون**، المقدمة، الجزء الأول، ١٨٧٩.
- لاكوش، ايف، **العلامة ابن خلدون**، ط ١، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٧٤.
- الجابري، محمد عابد، العصبية والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
- الجابري، محمد عابد، **العصبية والدولة: معالم النظرية الخلدونية في التاريخ الإسلامي**، ط١، الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧١.
- جمعة، نفين، **فلسفة التاريخ عند توينبي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١.
- خاتم، محمد، "**الفكر السياسي عند المسلمين**"، عرض إبراهيم الغرايبة، موقع الجزيرة، ٢٠٠٢.
- زين العابدين، سهيلة، "**نظرية الدولة عند ابن خلدون**"، التاريخ، ٢٠٠١.
- الشدادي، عبد السلام، **ابن خلدون من منظور آخر**، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ٢٠٠٠.
- الشعكة، مصطفى، الدار المصرية اللبنانية، ط٣، ١٩٩٢. (نسخة إلكترونية)
- الشعكة، مصطفى، **الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون** ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨.
- عبد الكريم، زياد، **نشوء الدولة من منظور ابن خلدون**، ٢٠٠٩. (www.alrrayalarabi.com)
- عبد الواحد وافي ، علي، **عبقريات ابن خلدون**، ط ٢، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٤، ص ٢٢٢.
- عقاق، قادة، "**هرم المدينة عند ابن خلدون**"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١. (www.awa_dam.org/book)
- الفالح، متروك هايس، "**ابن خلدون ونظريات الثورة: نظريته في الثورة ومفهوم العصبية**"، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦.
- محمود، محمد، **سقوط الدولة كما يراها ابن خلدون**، ٢٠٠٨. (www.rayah.info/browse.php)
- المشهداني، ياسر، **تدهور الحضارة عند ابن خلدون**، ٢٠٠٩. (www.fustat.com/i_hist/mashhadani>shtml)